٨

بيت جدتي

قلت لدونالد بلا كبير اهتمام وأنا أقلب صفحات دائرة المعارف البريطانية:

- لا أصدق أن لديك جدة.

كنت واقفةً أمام إحدى مناضد المكتبة قبالته وكان يخبرني أن جدته تريد رؤيتي وتحب أن تدعوني معه إلى الغداء في يوم نحدده فيما بعد.

- لماذا؟ ألست كبقية البشر؟
- بلى ولكنك لم تذكرها قبل ذلك.
- هل أخبرها بموافقتك؟
- نعم، إن كانت لك جدة فعلاً!

بعدها خرج وأكملت عملي ثم عدت إلى المنزل في الساعة السابعة مساء. وبعد ذلك بما يزيد على النصف ساعة كنت أخرج من الحمام وقد ارتديت ثوب الحمام ولففت رأسي بفوطة كبيرة. وقبل أن أصل إلى غرفة النوم سمعت رنين التليفون. عندما رفعته فاجأني صوت غريب غير مألوف، كان صوت امرأة مسنّة تخبرني أنها جدة دونالد وتدعوني إلى الغداء في بيتها. فوجئت بتلك المكالمة ولكني رحبت بها وقبلت دعوتها. كان قد مضى ما يقرب من ثلثي عام على معرفتي دونالد وكنت كعادتي بين

الكتب والمراجع بأنواعها وكان كل شيء قد بدأ يصبح صعباً بما يتلف الأعصاب بتطور مرحلة البحث ولم يكن يخفف كل ذلك إلا صحبة دونالد التي تزيدني ثقة بنفسي وعملي وبالعالم كما تضفي جواً مرحاً حول كل شيء، وهذا ما جعلني أقبل دعوة الجدة بلا تردد.

وفي الموعد المقرر مرّ دونالد عليّ بسيارته. كانت الأنسام الباردة تدخل علينا من نافذتي السيارة الأماميتين المغلقتين إلا من فتحتين ضيقتين قريباً من السقف. وكان صوت محرك السيارة الصغيرة والرياح الخفيفة يختلط بأغنية رقيقة لخوليو المغني الإسباني. تركنا خلفنا شوارع مركز المدينة المكتظة بالسيارات والناس ودخلنا طرقاً هادئة أشجارها وأزهارها كثيرة، ومنازلها متباعدة أمام بعضها طفلين أو أكثر يلعبون بسلام.

- إنها منطقة رائعة.
- نعم، إنني أزور جدتي أحياناً فقط لأستمتع بهذا الهدوء عندما أكون متوتراً.

قالها وهو يلقي نظرة سريعة إلى الشجريات الشديدة الخضرة التي تحركها رياح هادئة ثم عاد إلى النظر أمامه. وكنت أتأمل تلك المنطقة المتسعة الشوارع والمنعطفات وكأن أصحابها ضاقوا باتساع الأرض التي في حوزتهم فجعلوها في الطريق التي قلما تقطعها سيارتان في وقت واحد، وجعلوا في جوانب هذه الطرق أرصفة مزروعة.

- تبدو جدتك ثرية وإلا لما سكنت هذه المنطقة.
- إنها ليست ثرية ولكنها عنيدة.
- كيف؟
- إنها ترفض أن تترك منزل الأسرة، تقول إنه شهد تاريخ الأسرة، ومن المؤسف أن يترك للغرباء... ولكنها أيضاً ليست فقيرة، إن لها ودائع

تستثمرها في بعض البنوك تصرف منها بقدر ما يحفظ لها المستوى المعيشي الذي تريده، وهي لا تريد الكثير.

- تبدو امرأة حكيمة.
- إنها كذلك، ولكن يجب أن تكوني حذرة معها فهي شديدة التحفظ وتحكم على الإنسان من تصرفات صغيرة لا يلاحظها أحد... إنها تعيش بعقلية الأربعينيات...
- ذلك مخيف، لا أستطيع أن أضمن أنني لن أفعل شيئاً يضايقها.
- ربما كنت مبالغاً، كوني نفسك طبعاً، ولا تهتمي بشيء، أنا نفسي لا أحرص على التصرف بشكل يرضيها دائماً لذلك فلا أعتقد أن شخصيتي تعجبها.. وهي دائماً تلومني لأسباب كثيرة.

وصمتنا ودخلت السيارة منعطفاً أخيراً ثم وقفت أمام منزل صغير نسبياً يتوسط صفاً من المنازل وأمامه حديقة مستطيلة كالغالبية العظمى للمنازل البريطانية. خرجنا من السيارة فاستقبلتنا أصوات زقزقة الطيور مع كمية أكبر من تلك الأنسام الباردة الهادئة التي استنشقها دونالد باستمتاع ثم قال:

- هذا ما أسميه بيت جدتي.
- إنه جميل، رائع!
- أليس كذلك؟

كانت حديقة الجدة الأمامية بها شجيرات في أطرافها التي تربطها بحديقتي جاريها أما باقي المساحة فقد فرشت بالحشائش المشذبة وأنواع مختلفة من الأزهار. وكانت المرأة جالسة أمام نافذة حجرة الاستقبال المفتوحة الستار تنتظرنا، وما إن رأتنا حتى هبت إلى الباب الأمامي وهو باب مصنوع من خشب ثمين له إطار مزخرف بنقوش بسيطة. وعندما فتحت الباب ودخلنا البيت استشعرنا دفئاً لطيفاً مع شذىً خفيفٍ لأوراق

الخزامى المجففة الموضوعة في صحنين على رفين متقابلين بالممر.

كانت الجدة واقفة في الممر وهي ما تزال ممسكة بالباب وبجانبها قطة سمينة. قَبَّلَ دونالد جدته ثم عرفها بي وحمل القطة السمينة واتجه بها إلى الداخل وهو يناغيها ويداعبها. كانت الحجرة التي أدخلنا إليها صغيرة توحي بالدفء وقد امتلأت برائحة صلصة لحم مفروم كالتي تعد مع الاسباغيتي. وكان الأثاث مجموعة من الكراسي البنية اللون المحشورة في الغرفة الصغيرة على مقربة من المدفأة. على أحد الجدران اصطف عدد من الصور للعائلة من بينها صورة لدونالد عندما كان في الثانية عشرة من عمره ووالديه ووالدي جدته، وكانا يرتديان ملابس تبدو من القرن الثامن عشر فشعرت أن تلك الأسرة عريقة. وبينما كنّا ننظر إلى تلك الصور همس لي دونالد بأن جدته قد تطورت تطوراً خطيراً إذ أعدت طبقاً إيطالياً وليس إنجليزياً، وأن ذلك يعد تنازلاً تشكر عليه.

أشارت لنا الجدة بالجلوس بعد أن خلعنا معطفينا ولكني أخبرتها أنني جلست مدة طويلة في السيارة وأتمنى أن أفعل شيئاً به حركة أكثر فنظرت إليّ برهة فأصبت بشيءٍ من الحرج إذ تذكرت ما قاله دونالد عن التزام الحذر معها لحرصها على الكثير من أمور اللياقة، فنظرت إلى دونالد أحاول الاسترشاد به فقال:

- نورة تعني: بوسعنا مساعدتك في المطبخ إن كنت تحبين ذلك.

فابتسمت وقالت بكلمات متفرقة واضحة بسبب تدفقها المتريّث:

- أشكركما، قد أحتاج مساعدتكما فيما بعد، ليس الآن، ولكن يمكنكما التمشي في الحديقة الخلفية وسأرافقكما، ويمكنكما أيضاً التجول في المنطقة قليلاً.

فابتسمت لها وأجبت:

- لا، سنكتفي بالتنزه في الحديقة برفقتك.
- هيا بنا إذن.

وقادتنا خلال المطبخ إلى بابٍ خارجيّ له يفتح على الحديقة الخلفية. عادت إلى أسماعنا زقزقة الطيور بانفتاح الباب الزجاجي وكانت رياح هادئة تتلاعب بملابس الجدة المعلقة على حبل الغسيل وشبه الجافة، وكانت الحديقة منسقة تنسيقاً بديعاً بمساعدة البستاني الذي يأتي ليعتني بها مرة في الشهر كما قالت الجدة. كان النصف الأماميّ المجاور لجدران المنزل مقسماً إلى أحواض مستطيلة صغيرة يضم كل منها نوعاً من الأزهار، ويتوسطها حوض مستدير خُصص للورد وكان جميعه أصفر اللون من الحجم الصغير، أما المساحة بين كل تلك الأحواض فكانت مفروشة بالحشائش الشديدة الإخضرار والمشذبة. أما النصف الخلفي فكانت به شجيرات صغيرة وأنواع من الأعشاب المستخدمة في الطهو.

كانت الجدة تتوقف أمام كل نوع من أنواع النباتات وتتحدث عنه قليلاً بكلماتها التي تخرج واحدة واحدةً بهدوء وتريث وكأنها تريد أن تعطي كل كلمة حقها في الظهور، ثم تخطو بتؤدة إلى النباتات المجاورة وتبدأ الحديث عنها وبين لحظة وأخرى تنظم خصلات شعرها الشمطاء والتي يبعثرها الهواء على وجهها؛ تبعدها ببطء وصبر يتناسب وكلماتها الرزينة وكأنها لا تعبأ بجريان العالم السريع حولها. وفي نهاية الجولة وبعد أن أخبرتني باستخدامات تلك الأعشاب حدقت في المساحة المزروعة أمامها وكأنها غير راضية وقالت:

- لقد كانت حديقتي أجمل بكثير في السابق، إنني امرأة عجوز، عدت غير قادرةٍ على رعايتها كما يجب.

كانت تلك الجملة مألوفة جداً عند كل مهتم بالحدائق؛ ينظر إلى حديقته

المنسقة البديعة بغير اقتناع ثم يقول إن حديقته لم تعد كما كانت في سابق عهدها، وتكون الإجابة المتوقعة:

- بل إنها رائعة، إنها في منتهى الجمال.
- شكراً يا عزيزتي. والآن سأدخل لألقي نظرة على الاسباغيتي... ويمكنكما أن تبقيا قليلاً إن أحببتما.

ولم نبق هناك بل دخلنا خلفها وجلسنا في غرفة الجلوس، وبعد قليل قمنا نساعد الجدة في تحضير المائدة. وبينما كانت تستخرج بعض الأواني من خزانة أثرية قالت مخاطبة حفيدها:

- آمل أن تتذكر آداب المائدة يا دونالد.
- جدتي، لقد أصبحت في الثلاثين من عمري.
- وهذا أدعى إلى أن تتمسك بها.

ثم التفتت إليّ وقالت:

- هذه ظاهرة ليست لطيفة. لم يعد أحد يراعي آداب المائدة الآن... ولا أيّ نوع من الآداب.
- إنه شيء مؤسف يا مسز جونز.
- نعم إنه كذلك، أين ذهبت أخلاق الناس.

أجاب دونالد من خارج المطبخ وكان يحمل مجموعة من الأطباق إلى غرفة الطعام:

- وأين الديناصور يا جدتي!

وضحكت من فوري ولكنها لم تر ذلك مضحكاً فابتلعتُ بقية الشعور بالضحك بينما أجابت هي بصوت ترجرج عندما رفعته:

- دونالد، الأخلاق أهم من الديناصور لذلك لا بد أن تبقى بعد أن ذهب.

وجاء صوت دونالد الساخر عالياً من غرفة الطعام وهو يقول:

- إنك مخطئة يا جدتي، لا أظن أنها أهم من الديناصور، فعلى الأقل ها

هو الديناصور يعود في خيال الناس، ولكن هل ستعود الأخلاق يوماً؟
- دونالد، هل تقول إن مخلوقاً في قبح الديناصور وخطره على الناس أهم من الأخلاق؟
- يبدو ذلك.
فوبخته بصوتها الرجراج قائلة:
- لا تكن سخيفاً يا دونالد!
فدخل مندفعاً نحوها وعلى وجهه تعبير محبة شديدة وقبض على ذراعيها النحيفتين ورفعها عالياً، فظهرت نظرة رعبٍ شديدٍ على وجهها في حين انزلقت نظارتها إلى أسفل أنفها. كان ذلك التصرف غير متوقع وقد ظللت أضحك أسبوعاً كلما تذكرت وجه الجدة المرعوب وهي ترتفع عن الأرض، ولم تغفر لي الجدة ذلك وإن تظاهرَت بتناسيه عندما جلسنا إلى المائدة.

أثناء تناول الطعام نظرت الجدة إلى حفيدها نظرة تأديبية وقالت له بحزم:
- كوعاك يا دونالد، كوعاك!
فأبعد كوعيه عن المائدة وهو يقول:
- آسف يا جدتي، في المرة القادمة سأترك كوعيّ في شقتي.
كانت مقتضيات اللياقة مثل عدم وضع الكوعين على المائدة من الأشياء التي تقدسها الجدة، لذلك فقد ظللت على حذر وقلق من أن أخطىء أمامها، فقد تعلمت أن المسنين هناك لا يستوعب عقلهم أبداً أن هناك أجيالاً أخرى أتت بعدهم لها أساليبها الخاصة فضلاً عن أن يستوعب أن هناك شعوباً أخرى لها أساليبها المختلفة، وقد أثبتت جدة دونالد صدق هذه النظرية لأنها بعد الغداء أدارت اسطوانة قديمة وأعدت الشاي دون أن تسألنا إن كنا نفضل الشاي أم القهوة مبررةً ذلك بأن الإنجليز كانوا أساساً شعباً من الشعوب

الشاربة للشاي لا القهوة كالشعب الفرنسي، ثم قدمته في أكواب بدت أثرية أخذت تمتدحها مقارنةً بالأكواب الكبيرة التي يفضل الناس استخدامها في هذا الزمن لأن شكلها التقليدي أجمل، ولأن معها صحون لوضع الملعقة فيها بعد تحريك السكر. كان الشاي قوياً بشكل أشعرني بالغثيان ولكني لم أشأ أن أصدمها.

بعد قليل وضعت الجدة اسطوانة ثالثة وجلست تكمل كوب الشاي وألقت برأسها على ظهر المقعد وأغفت. فتسللت إلى المطبخ وسكبت ما تبقى في كوبي من الشاي ثم عُدتُ وأخذت أتأمل المرأة النائمة؛ لقد كانت إنجليزية بشكل كبير وتتصف بكل ما يتصف به الإنجليز المحافظون الذين يقاومون الخروج عن التقاليد التراثية ويحبون أن تحكمهم الأسرة الحاكمة بأبهتها مع تحديد صلاحياتها كجزء من التراث، كما يحتفظون بملابس الجنود التقليدية والعربات ويصوتون لصالح باروكة القضاة البيضاء المضحكة كلما نادى بعضهم بنبذها لأنه يشعر بالسخف أثناء ارتدائها، ويجعلون النتيجة دائماً تنتهي بانتصار التراث والباروكة البيضاء ذات الشعر الأجعد المنسق بذلك الشكل الكاريكاتوري وذات الأحجام المختلفة التي تظهر رتب القضاة.

كنت ودونالد جالسين على كرسيين متقابلين وقد تقدم كل منّا إلى طرف الكرسي كي نتحدث همساً فلا نزعج الجدة، قلت له فجأة:

- أظن أنني أستطيع أن أرسمك.
- حقاً؟ لم أكن أعلم أنك رسامة.
- لست رسامة ولا أستطيع أن أرسم إلا الأشكال الهندسية كما تعلم، ولكن
شكلك من السهل رسمه.
- هل هذا إطراء أم ذم؟

- لا أعلم، ولكن ملامحك غير معقدة.

ولم يقتنع دونالد بإجابتي التي لم تطر وسامته لذلك أضاف معاكساً:

- أعلم على كل حال أنك ترينني في منتهى الوسامة.

فابتسمت مؤيدة وأكمل هو:

- ارسميني إذاً، ارسميني مع سالي.

واتخذ مع القطة وضعاً مناسباً للرسم وقال ضاحكاً:

- ما رأيك في هذا الوضع؟

- جميل جداً ولكني لا أشعر برغبة في الرسم الآن فموسيقى جدتك لا تحفزني على ذلك.

فأرسل نظرة حانقة إلى جهاز الجرامافون القديم وأجاب:

- إنها لا تحفز على شيء.

وصمتنا لحظات شعرنا فيها بالنعاس، وكان وقت القيلولة والشعور بالشبع والموسيقى التاريخية ومنظر الجدة النائمة يشيع جواً حميماً فآثرت أن أغادر البيت، فأيقظ دونالد جدته فشكرتها وودعتها.

بعدها أصبح لدونالد شكلٌ آخر، كان يبدو إنساناً مستقلاً محلقاً في الجو، أما في بيت الجدة فقد اتخذت صورته أبعاداً أخرى لم أكن أدركها، أصبح فجأة في نظري رجلاً عائلياً ودوداً له تاريخ وجذور، أما بيت الجدة فقد كان كما قال دونالد تماماً؛ بيتاً هادئاً جميلاً يشعر الإنسان فيه بالراحة والهدوء وبأن الدنيا بخير وبأنه لا داعي للجري المتواصل، فأثاثه الوثير القديم الطراز يغري بالتوقف من أجل الراحة والتأمل ونسيان العالم الذي يجري خارجه، فإذا لم يفلح الأثاث فالجدة كفيلة بكلماتها التي تخرج بتؤدة وهدوء واسطواناتها الأثرية بأن تردك إلى زمن قديم تنحبس فيه قليلاً فلا تفكر في الزمن الحاضر.. كم غبطت دونالد على بيت جدته تلك فلديه مكان يأوي إليه عندما تزداد ضغوط الحياة عليه. نظرت إليه

وهو يقود السيارة في طريق العودة وشعرت أنه يمكنني اعتبار هذا الإنسان «بيت جدتي».

جلست متهالكة على سرير حصة في غرفتها بالسكن الجامعي وقد عدنا لتونا من محل البقالة بينما ألقت هي بأكياسها على الأرض ووقفت أمام المغسلة تملأ الإبريق الكهربائي، وتحدثنا أثناء ذلك في بعض أمور من بينها زيارتي لجدة دونالد، وما كدت أذكر ذلك حتى التفتت حصة إليّ ولاحظت أن عينيها اتسعتا كثيراً فتوقفت:

- ما بك؟
- هل ذهبت مع رجل... إلى بيته؟
- إلى بيت جدته!
- سبحان الله!
- كانت جدته جالسة معنا.
- ولكن كيف؟ كيف؟ ألم يكن من الممكن ألا تكون معكما؟
- ولكنها كانت معنا.
- ألم يكن من الممكن أن يذهب بك وأنت معه في السيارة إلى مكان آخر؟

فانطلقت مني ابتسامة بها مقدمة ضحكة وأجبت:

- ولكنه لم يذهب بي إلى مكان آخر وما كان ليفعل، إنني أعرفه جيداً وأثق به.

فأشاحت بوجهها غاضبة وساد الصمت دقيقة أعادت فيها حصة الإبريق إلى مكانه وضغطت على زر التشغيل ثم اتجهت إلى كرسيّ بجانب المرآة وخلعت غطاء رأسها وألقت به جانباً وأرسلت شعرها وجلست صامتةً لحظات. تأملت وجهها خلال تلك اللحظات وكان شعرها الحريري اللامع الفاحم منسدلاً بحرية على كتفيها بعد أن أطلقت سراحه.

كانت ملامحها تبدو في أحلى حالاتها وهي محاطة بشعرها رغم التعبير الغاضب مؤقتاً، وشعرت أنه لا بد لمثلها أن تكون له قصة أو قصص مؤثرة قبل أن تصل إلى تلك المرحلة الجادة من حياتها، وتمنيت أن تسر لي بشيء منها يوماً، وبينما أنا في ذلك التفتت إليّ حصة ثانية وقالت:

- كنت أظنك أعقل من ذلك... ثم من هذا الذي تذهبين معه إلى بيت أهله، هذا الإنجليزي، هل هو من أهلك!
- تعلمين أنه صديق منذ مدة.
- أستغفر الله! لا صداقة بين رجل وامرأة، لماذا تتركين أفكار الغرب تتسرب إليك، كنت أظنك أعقل كثيراً من ذلك...

وكنت أعلم منها بأنه لا صداقة بين امرأة ورجل خاصة بيني وبين ذلك الرجل، ولو علمت حصة بطبيعة العلاقة بيني وبينه وبأنها تعدت الصداقة إلى الحب لانفجرت غضباً أو أصيبت بالاكتئاب، ولكني شعرت بالرغبة في طمأنتها.

- حصة، إنك تهولين الموضوع وهو أصغر من ذلك بكثير.. وعلى كل حال فأنا أعلم بمصلحتي، وتأكدي أنني لا أقول هذا جزافاً، لم أقله إلا لأنني واثقة من حسن محافظتي على نفسي وأخلاقي..

ولكنها لم تطمئن إطلاقاً بل نظرت إليّ نظرة يائسة وقالت:

- أظن أنك تهورت يا نورة، أثر فيك البقاء هنا فأصبحت طائشة... الدراسة

هنا لا تصلح إلا لمن يستطيعون مقاومة كل المغريات...

ولم أكن بحاجة إلى سماع ذلك الكلام، فقد كان مثله يتردد في نفسي بين الفينة والفينة ولكني كنت أزج بكل شيء جانباً وأغوص في أوراقي ومراجعي، وعندما أرفع رأسي بعد أيام وكلي رغبة في إراحة نفسي واستنشاق هواء نقي بعد هواء القراطيس المكتوم أرى دونالد أمامي

يعرض عليّ الترفيه والتنزه والراحة الذهنية وأشياء أخرى أحتاج إليها كثيراً، فتتطاير تلك الأفكار المثالية من رأسي حتى إشعار آخر، وأبرر لنفسي أن من حق كل إنسان أن يكون له «بيت جدة» يأوي إليه متى ضاقت به الدنيا، وما كان أكثر ما تضيق.. وما كان أسخف تفكيري آنذاك ولكن استمرت علاقتي بدونالد وبجدته التي زرناها عدة مرات بعد ذلك، وتبادلنا معها البطاقات والهدايا في المناسبات المختلفة، واستمرت زياراتي لحصة أيضاً وإن أصبحت أخفي عنها كل ما يتعلق بدونالد وجدّته.

Delalkhalifa.com